المحاضرة الأولى:

الفلسفة الغربية الحديثة: مشكلة النشأة

قد لا يتم الحديث عن الفلسفة الحديثة بدون أن نشير إلى الإرهاصات التي سبقت نشأتها، وأقصد بذلك الظروف التي سادت عصر النهضة، وهيأت العقل الغربي الحديث لينشئ مرحلة جديدة في الفلسفة، هي ما يصطلح عليها بالفلسفة الحديثة. والصعوبة الأكثر حدّة التي تصادف الباحث في نشأة أي حقبة فكرية معينة تتمثل في نقطة البدء؛ فلا أحد أراد كتابة تاريخ مرحلة فكرية معينة إلاّ ووجد نفسه مربكاً في اختيار نقطة البدء، ومهما كانت الواقعة التي يختارها لذلك، كنقطة البدء للتأريخ، إلاّ ويجد أنّها مشروطة بحوادث أخرى، وبالتالي كل تأريخ لفكرة أو لمدرسة فكرية لن يبدأ سوى بأكثر أو بأقل من نقطة بداية تحكمية واعتباطية فقط، وليست ضرورية، وتاريخ الفلسفة الحديثة لا يستثنى من هذا الاعتبار(1). وهكذا يصعب تحديد نقطة بداية دقيقة لنشأتها، اللهم إلاّ إذا كان ذلك على سبيل المواضعة والاتفاق.

ما هو أكيد بالنسبة لتاريخ الفلسفة الحديثة أنها لم تنطلق من فراغ، بل كانت هناك مصادر لعبت الدور الأهم في نشأتها. وأهم هذه المصادر الفلسفة اليونانية كمهد للفلسفة، شأنها في ذلك شأن كل الفلسفات الأخرى، وكأّن كل الفلسفات وكل التيارات المنتمية لها تجد أصولها في الفلسفة اليونانية.

أمّا فيما يتعلق بمشكلة النشأة، فإنّها تطرح بحدّة في الفلسفة الحديثة بين الدارسين أنفسهم، وذلك حسب توجه كل دارس ورؤيته لتاريخ هذه الفلسفة، فتعدّد الآراء إنّما يدلُّ على عدم الفصل

[1] - Calkins.M.W, The The persistent problems of Philosophy,. (The Macmillan Company., London: Macmillan & Co.,Ltd 1907). p: 17.

في قضية النشأة. وهكذا تعدّدت الرؤى بين من يرجعها إلى لحظة قطع الصلة بالفلسفة الوسيطية السكولائية، ومن يرجع نشأتها إلى جذور العصر الوسيط، ورأي ثالث يربطها بالفلسفة القديمة أو ما تعرف بفلسفة الأصول. فهل يمكن تأسيس وجهات النظر هذه في نشأة الفلسفة الحديثة؟

نحاول في هذا المدخل أن نناقش وجهتي نظر أسّستا لنشأة الفلسفة الحديثة؛ رأي يرجع تأسيس الفلسفة الحديثة في عمومها إلى قطع الصلة بفلسفة وتراث العصور الوسطى، ويتم ربطها إمّا بـ"ديكارت" أو "فرنسيس بيكون"، ورأي ثان يرجع جذورها إلى الفلسفة السكولائية وحتّى إلى الفلسفة اليونانية، وهذا الاختيار المنهجي يجعلنا نناقش في محاضرتنا هذه الفلاسفة الذين ظهروا قبل القرن السابع عشر.

1- يرى الفيلسوف الفرنسي" **فيكتور كوزان**"(2) أنّ المظهر الأكثر عمومية الذي تتميّز به الفلسفة الحديثة هو الاستقلال التام، الذي يعدّ أهم خصائص الفلسفة الحديثة. إنّه استقلال من جميع السلطات: السلطة الدينية والسلطة المدنية. السلطة التي تتحكم في السكولائية، أي سلطة الكنسية الإكليريكية من جانب، والسلطة المدنية التي تحكمت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. إنها قطع الصلة بكل ما يمتُّ إلى الماضي، وتفكر فقط في المستقبل، وتشعر بأنّ لها القدرة على رسم المستقبل بذاتها. أمّا موقفه من فلسفة العصور التي سبقت القرن السابع عشر، أي القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، فيُنظر لفلسفتهما « كما لو كانت تربية للتفكير الحديث عن طريق التفكير القديم، خاصيتها حماس متّقد و غير متبصّر، أمّا نتيجتها الضرورية فكانت تخمّراً عاماً، ورغبة في ثورة حاسمة. هذه الثورة اكتملت في القرن السابع عشر، فكانت بذلك ما يعرف

2 - Cousin (Victor), Course of the history of modern philosophy. . Vol.II., New.York: D.Appleton & Company, 200Broadway. MDccc LII. p:77.

بالفلسفة الحديثة»[3]. وبهذا ينظر إلى الفلسفة الحديثة على أنّها ثورة على سلطة الماضي، وقطع لكل صلة بتراثه.

البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة هي التي يؤرخ لها بقطع الصلة بالفلسفة المدرسية السكولائية، ويربط هذه البداية بـ"ديكارت"، ذلك لأنّ الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى لم تكن متميّزة أو مستقلة عن الدين، وعلى حدّ تعبير "**هيجل*Hegel*(1770-1831)**:« أن الثيولوجويا الوسيطية كانت واعية أنّها فلسفة، وأنّ الدّين علم فلسفي»[4]. هذه الأخيرة، أي الفلسفة الوسيطية، لم تكن وطنية، ولكنّها كانت تمثل محاولة أو جهداً عقلياً مشتركاً للمسيحية ككل في أوربا على حد تعبير البروفسور "سورلي".

إنّ موقف مؤرخ الفلسفة الإنجليزية "سورلي" وغيره ينبني على أساس مقابلة تكاد تكون مطلقة بين ما هو حديث و ما هو وسيطي؛ فكل ما هو حديث برأيهم لا يمتُّ إلى الفلسفة الوسيطية بشيء، وما هو وسيطي لن يمتدّ إلى ما هو حديث، إنّه مبدأ القطيعة والرفض ونكران الاستمرارية في الفكر البشري، الذي لا يعتدُّ به عند بعض الدارسين لتاريخ هذا الفكر، أمثال مؤرخ العلوم الإنجليزي"**جيمس فريزر***James.G, Frazer*"(1854-1941)في كتابه "**الغصن الذهبي**"

2- وعلى الأساس السابق لم يرُق للكثير من الدّارسين لتاريخ الفلسفة الأوربية هذا الموقف، إذ يلّح بعض الفلاسفة على ضرورة دراسة تاريخ الفلسفة من أجل فهم توجهات الفلسفة الحديثة، ذلك لأن أسس هذه الفلسفات إنّما هي مبثوثة في ثنايا الفلسفات السابقة، خاصة الوسيطية منها. وإذا علمنا أن الصورة العامة للفلسفة الوسيطية إنّما هي تلك الصورة التي ورثتها نتيجة إحياء التراث

3 - *Loc.cit.*

4 - هيجل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ت/خليل أحمد خليل.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت. ط1. 1986. ص:203.

الفلسفي اليوناني، ونخص بالذكر الصورة الأفلاطونية والصورة الأرسطية، فهذا يعني أنّ فلسفة العصر الحديثة مبثوثة في ثنايا الفلسفة اليونانية. لقد تعوّد التقليد القديم على القول إنّ السكولائية، أو فلسفة القرون الوسطى، تمّ رفضها من مفكري عصر النهضة، وذلك أنّ الناس تعلموا، إذن كيف يتخلوا عن السلطات لكي يفكروا بأنفسهم. وفي الحقيقة هذا الرأي غير صحيح «السكولائية لم تُرفض قط، ومفكرو عصر النهضة أنفسهم كانوا سكولائيين.."بيكون" الذي يُفترض أنّه مؤسس فلسفة جديدة استخدم القياس للبرهنة على عدم نفع القياس»(5).

أمّا "**ج.روبرستون كرووم**"***George Croom, Roberston***"(1842–1892) يقترح رأياً آخر يبدو غريباً، فيحدّد بدايات الفلسفة الحديثة، من خلال دراسته الفلسفة الإنجليزية ونشأتها الحقيقية في العصر الوسيط، أي وكأنّ الفلسفة الحديثة من هذا المنطلق نشأتها تمّت في أحضان الفلسفة السكولائية ذاتها، وليس من خلال قطع الصلة بها(6). وأيضاً الفيلسوف الأيرلندي "**روبرت آدمسون**"***Robert, Adamson*** "الذي يعتقد أنّ: «الدافع الرئيسي لدراسة الفلسفة حسبه، ليس الفضول بدون شك، الذي يبقى جاهلاً للماضي يبقى دوماً طفلاً، وتاريخ الفلسفة هو ذاته فلسفة في زمانها» (7). وهكذا يعتقد "آدمسون" بضرورة الاستمرارية في تطور تاريخ الفكر الفلسفي، ويصف هذه الاستمرارية بأنّها ميزة طبيعية في تطور الفلسفة، لكن لا ينبغي أن تؤخذ حرفياً(8)؛ أمّا موقفه من مشكلة النشأة فيتمثّل في أنّ الفلسفة الإنجليزية لم تبدأ مع "بيكون" حينما قطع الصلة بالفلسفة

5 - Delisle Burns.C., The Growth of Modern Philosophy., Sampson Low, Marston & Company, LTD.,1909. .p: 20

6 - Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. London: J.M. Dent & Sons, LTD. 1912.p:11.

7 - Adamson (Robert). The Development of Modern Philosophy,V:I.,(William Blackwood Son., Edinburgh London.,1903). P:1.

8 - *Ibid*. p.2.

السكولائية، بل بدأت مع الفلاسفة الإنجليز الذين عاصروا الفلسفة الوسيطية. وقياساً على ذلك، فالأمر نفسه مع الفلسفة الحديثة ككل.

ويورد "آدمسون" لتأييد موقفه هذا عدّة شخصيات من العصر الوسيط تمثل الفلسفة الإنجليزية، وأهمهم اسمان يمكن أن يقال عنهما أنّهما يمثلان خصائص اتجاه الفلسفة الإنجليزية المتأخرة وهما: "روجر بيكون" و"وليام أوكام"، بتجريبية الأول واسمية الثاني، واللذان بشّرا ببزوغ الفلسفة الحديثة، وسبقا نزعة التفكير الإنجليزي المتأخر(9).

هذا الانحراف الذي دشّنه "روجر بيكون" عن مبادئ الفلسفة السكولائية في القرن الثالث عشر يذهب به "وليام أوكام" تلميذ "دونس سكوتس" أبعد في القرن الرابع عشر، والذي ارتبط اسمه في تاريخ الفلسفة بالاسمية(***Nominalism***) كمجدد لها، ضد الواقعية(***Realism***) التي وطّدت نفسها أخيراً كمذهب مألوف للفلسفة السكولائية.

لكن هناك رأياً يبدو أكثر تطرفاً، فيما يتعلق بردّ الفلسفة الحديثة إلى الأصول الأولى مع الحضارة اليونانية، فالأكيد أنّ الجهد التأملي للعصور الوسطى يبدو وكأنّه سلسلة أحداث متقطعة وغير ضرورية، إذ نربط الأفكار الأساسية للقرن السابع عشر بأكثر سهولة بفلاسفة اليونان "أفلاطون" و"أرسطو"، أكثر من الشرّاح الممثلين للفلسفة المدرسية، أو فلسفة القرون الوسطى(10). إنّ ربط الفلسفة الحديثة في عمومها بتراث القدامى فقط دون مقومات ذاتية أمر لا يقبله العقل ويرفضه منطق التاريخ، إذ ينفي بذلك كل خصوصية.

9 - Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy *Op.cit*. pp:11-12.
10 - *Ibid*. p.3.

كخلاصة للمناقشات المتعلقة بالنشأة، نعتقد أنّ الفلسفة الحديثة لم تنشأ فجأة في العصر الحديث، ولم تتأسس في أحضان السكولائية، كما لا يمكن أن نربطها بشخص معيّن وبتاريخ صدور كتاب معين.